خليل هندي

من الطنطورة إلى بير زيت

حررها: **أنيس محسن**
أجرى المقابلة: **الياس خوري**؛
ميشال نوفل؛ **خالد فراج**؛
أنيس محسن

من قرية الطنطورة قرب حيفا إلى رئاسة جامعة بير زيت، لم تكن رحلة خليل هندي سهلة، وإنما سلسلة من المعاناة والصعوبات يقابلها إصرار على تغيير الواقع نحو الأفضل. وهكذا، فإن الطفل الذي عاش مع جدته وعمّاته وأعمامه، وتمسك بثوب جدّته خلال اللجوء من الطنطورة المحتلة في سنة ١٩٤٨ في اتجاه مخيم اللاجئين في طولكرم، حيث الفقر المدقع والحرمان، يصنع من نفسه وبنفسه التغيير الأول على المستوى الشخصي فينجح في أن يصبح واحداً من أهم الأكاديميين الفلسطينيين. ويحاول أن يغيّر من الواقع السياسي الفلسطيني فيعيش الوقائع ويصنع بعضها ـ أو على الأقل يشارك في صنعها ـ وحين لا ينجح، لأسباب موضوعية، لا يصاب بالإحباط، بل يرى دائماً الضوء في نهاية النفق، ويراهن على الشباب الفلسطيني في عملية تغيير تنتشل القضية الفلسطينية من مأزق أوسلو وما بعد أوسلو.

في بداية العام الأكاديمي ٢٠١٠ ـ ٢٠١١ عُيّن خليل هندي رئيساً لجامعة بير زيت، الجامعة الأهم والأشهر فلسطينياً.

ولد هندي في قرية الطنطورة في حيفا في سنة ١٩٤٤، وعاش مع عائلته لاجئاً منذ سنة ١٩٤٨ حتى سنة ١٩٦٢ في مدينة طولكرم في فلسطين. حصل على منحة دراسية انتقل في إثرها إلى لبنان للدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت. وعاش في إنجلترا (في مدينتَي مانشستر ولندن) من سنة ١٩٧١ حتى سنة ٢٠٠٢ حين بدأ العمل في الجامعة الأميركية في بيروت. وعلاوة على البحث العلمي، كتب هندي من حين إلى آخر في الشؤون

الفلسطينية والعربية.

حصل على البكالوريوس في الهندسة الإلكترونية من الجامعة الأميركية في بيروت، والماجستير في الهندسة الإلكترونية من جامعة مانشستر، والدكتوراه في الهندسة الإلكترونية من جامعة مانشستر، والدكتوراه العليا في العلوم الإدارية من جامعة برونل. وهو مهندس مرخص في بريطانيا، وزميل معهد المهندسين الكهربائيين في بريطانيا، ورياضي مرخص في بريطانيا، وزميل معهد الرياضيات وتطبيقاتها في بريطانيا، وزميل جمعية الكمبيوتر البريطانية، وزميل في الجمعية الملكية البريطانية لتشجيع الفنون والصناعة والتجارة. عمل استشارياً لعدة شركات، بينها مختبرات شركة يونيلفر للأبحاث؛ مركز البحوث المائية؛ شركة سيارات جاغوار؛ شركة فريسكيز المحدودة (فرع لشركة نستله)؛ عدة شركات صغيرة ومتوسطة.

خلال زيارته لبيروت في كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٣، للمشاركة في اجتماعات مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية، عرضت هيئة تحرير "مجلة الدراسات الفلسطينية" عليه استضافته لإجراء حوار من دون تحضير مسبق. حوار مفتوح وبلا قيود: عن الشخصي في حياته وعن عمله النضالي؛ عن قراءته للواقع الحالي وعن رؤيته إلى المستقبل؛ عن التقاطع بين السياسي والأكاديمي؛ فكان هذا الحوار عن الشخص والوطن والسياسة والمجتمع والحياة الأكاديمية.

خليل هندي خلف مكتبه في بير زيت

العودة الناقصة والإحساس بالغربة

■ **قبل ٤ أعوام، انتقلت إلى بير زيت قادماً من بيروت، حدثنا أولاً عن رحلتك إلى فلسطين، ثم حدثنا عن جامعة بير زيت، وعن التعليم الجامعي في فلسطين وعن الثقافة فيها في هذا الزمن المرتبك: الاحتلال، والسلطة، والالتباسات، إلخ...**

□ الحقيقة أن طلب جامعة بير زيت أن أصبح رئيساً لها اعتبرته نوعاً من أداء الواجب، وأنه موقع يمكن أن أساهم فيه بفاعلية وأخدم الناس والمجتمع. واللافت كان ردات فعل الأشخاص القريبين مني في بيروت، فأحدهم كان مقتنعاً تماماً بأنها مسألة غرور "لأنك ذاهب إلى بير زيت كي تصبح رئيساً للجامعة"، وقد يكون هذا العامل موجوداً، لكنني أكاد أجزم أن ذلك لم يكن كل ما في الأمر. وصديق آخر قال لي: "لن تستطيع أن تفعل شيئاً الأوضاع معقدة. وبير زيت جامعة فقيرة. وأنت غريب. ستلاقي عداءً. عبث!"

في هذا الجو الملتبس، حتى على الصعيد الشخصي، قررت أنه لا بأس من التجربة، وقد ساعدني على خوضها أن الجامعة الأميركية سمحت لي بالذهاب وفتحت لي طريقاً للعودة حين أريد. إنها مغامرة، لكن ليست مقامرة أو نوعاً من حرق الجسور؛ ذهبت إلى بير زيت مصمماً على أن أقوم بخدمة الناس. فاجأني، عندما وصلت، التعامل معي على أنني غريب، تماماً كما تنبأ أحد الأصدقاء. المرحلة الأولى كانت صعبة جداً، والوضع كان مرتبكاً، وكان هناك تحركات طلاّبية ضد وجودي. نقابات وكتل طلاّبية، وخصوصاً الكتلة الوطنية (كتلة حركة "فتح" الطلابية)، أصدرت بياناً جاء فيه: لماذا يكون رئيس الجامعة من خارج الجامعة وقد هبط علينا بالباراشوت من بيروت؟ حدثت اضطرابات طلابية وبدا واضحاً أنها كانت بتحريض من بعض الأساتذة، لدرجة أنه تم إصدار منشور في الجامعة هددني بالقتل، وكانت هذه صدمة كبرى، لأني أساساً آت إلى أهلي، فإذا بي أجد نفسي في وضع يعتبرني فيه الناس غريباً ودخيلاً، ويقولون لي ماذا تفعل هنا؟!

طبعاً كان هناك أصوات أُخرى مرحبة: أحسنتَ صنعاً أنك تركت بيروت وأتيت إلى هنا كي تحاول أن تخدم أهلك!

الطريف أنهم عندما حاولوا حل موضوع بيان التهديد بالقتل، وجدوا طالباً قال: "أنا الذي قمت بكل شيء. كتبت البيان وطبعته ونسخته ووزعته في كافة أرجاء الجامعة في الوقت نفسه بمفردي ومن دون مساعدة من أحد"، وأخذوه إلى السجن. كان واضحاً أن ذلك تلفيق. وجدت من واجبي أن أرسل محامياً للدفاع عن هذا الطالب، وفي الوقت نفسه اتصلت بالمخابرات وطلبت الإفراج عنه. قالوا لي: هل أنت مجنون، لقد هددك بالقتل، ونحن نحاول أن نحميك، وأنت تقول أخرجوه من السجن؟ فقلت لهم إن المسألة واضحة، إنها "تلبيسة"، قالوا: "نسلّمه فقط للجامعة"، وأرسلت شخصاً من الجامعة كي يتسلمه، وحضر أهل الطالب واعتذروا مني، بينما ظل هو ينظر إليّ وإلى أهله بتحدّ وعدوانية كأن ما قام به فعل نضال ومدعاة للفخر!

كانت هذه أول صدمة، وبعد ذلك، خلال شهر أو اثنين، انغمست في العمل، وأصبح الناس يستمعون إليّ ويتجاوبون مع الأشياء التي أتحدث عنها، فتغير شعوري. أول فترة،

عندما يعتبرك الناس غريباً، تسأل نفسك: ماذا أفعل هنا إذا كان الناس لا يريدونني؟

بعد حين، أصبحت أُقْدم وأحاول أن أُصلح ما استطعت، وأطلقت لنفسي شعاراً هو: النبأ السيىء أن في جامعة بير زيت مشاكل كبيرة وكثيرة، أمّا النبأ الجيد فهو أن ذلك يعني أن مجال التحسين واسع. فانخرطت في العمل ووجدت تجاوباً من الإدارة ومن مجلس الجامعة، وبدأنا نعمل على القضايا الأكاديمية وتطوير القوانين والمناهج ومأسسة جباية الأموال وعلاقات الخريجين والتخطيط الاستراتيجي.

تحسُّن العمل الأكاديمي الجامعي، أعطاني شعوراً جيداً وكنت سعيداً... والأمر الرائع، وأنا الذي كنت قد تركت فلسطين وعمري ١٧ سنة، هو أنني أعيش لأول مرة في مكان جميع سكانه فلسطينيون، ولو كان بعضهم يعتبرني غريباً. يمنحني ذلك سعادة، وإن كان يشوبها بعض الأسى لأننا في نهاية الأمر ما زلنا نعيش تحت الاحتلال الإسرائيلي.

■ **لدى التفاوض مع مجلس أمناء بير زيت بشأن الانتقال إلى هناك، هل كان لديك شروط خاصة تتعلق بمدة العقد أو الدخل إلخ....؟**

□ كلا. كان راتبي في الجامعة الأميركية في بيروت مرتفعاً. لم يكن للانتقال إلى بير زيت هدف مالي. وزوجتي عاشت شبابها في مدينة رام الله ولها أخت فيها، فكان الانتقال إليها مغرياً لها.

العودة المنقوصة

■ **هل تعتبر أن العودة من خلال جامعة بير زيت لها علاقة بـ "حق العودة"؟ هل شعرت بأنك عدت؟ هل شعرت بأن هذا بلدك؟ ما هو شعورك نحو فلسطين؟**

□ صدقاً أنا قبل العودة كنت دائماً أقول لنفسي أنني لست مرتبطاً عاطفياً كثيراً بفلسطين، لدرجة أنني على سبيل المزاح، مثل كثير من الفلسطينيين، أتكلم على فلسطين وقلبي في لبنان. بالنسبة إليّ فإن قضية فلسطين هي قضية عدالة، وأنا كفلسطيني منخرط في قضيتي لأنها عادلة، ولو لم تكن كذلك، لكنت أميَل إلى قضايا أُخرى. لكنني عندما عدت، تيقنت أن هناك في نهاية الأمر ارتباطاً عاطفياً. فللعيش بين فلسطينيين نكهة أُخرى ومذاق مختلف. يكفي أنك عندما تُسأل: من أين أنت؟ تجيب: أنا من قرية كذا، بدلاً من أن تبادر إلى القول بتحدٍّ: أنا فلسطيني (كأن ذلك صليب يحمله المرء متلذذاً بالعذاب)!

لكن الأمر ليس بهذه البساطة. أنا أصلاً من قرية قرب حيفا. ومع أنني ترعرعت في طولكرم، نفسياً، لم أعتبر قدومي إلى الضفة الغربية "عودة" - إنها إن شئت عودة منقوصة - إنها تعويض بشكل ما؛ الضفة الغربية جزء من فلسطين، وأنا موجود بين فلسطينيين، وفي ذلك عزاء.

نعم إنه ليس شعوراً كاملاً بالعودة. وفي الحقيقة من الممكن بالسهولة نفسها أن أغادر فلسطين ولا أشعر بأن ثمة خطأ. لا أعرف إذا كان هذا شعوراً نمطياً، أو هو نتيجة نقص لديّ تسببت به أعوام البعد الطويلة عن البلد.

وأحياناً عندما يكون هناك مشاكل وصعوبات غير منطقية وغير مقبولة فإنني أغضب من الناس الموجودين هناك. أنا أقوم بإغضابهم وهم يغضبونني، يعني كله مركب على بعضه.

■ **عشت في بيروت وأنت تلميذ، ثم عشت كأستاذ من سنة ٢٠٠٢ حتى سنة ٢٠١٠، ثم ذهبت إلى رام الله وأنت تعيش هناك الآن: هل هناك اختلاف في شعورك بين بيروت ورام الله، أم إنه ليس هناك أي فارق؟**

□ في فلسطين لديّ أصدقاء أعرفهم قبل أن أذهب إلى جامعة بير زيت، لكن عندما يكون الشخص رئيس جامعة، ويكون أصدقاؤه، في معظمهم، مرتبطين بالجامعة بشكل ما، يصبح وحيداً، أي يشعر بالوحدة، لأن هؤلاء الأصدقاء والعاملين والأساتذة يضعون حدوداً في التعامل معه. ولأنك في هذا المنصب فلن تتمكن من تقليص المسافة، بينما في الجامعة الأميركية كنت واحداً من الأساتذة وتم الترحيب بي منذ قدمت إليها. وعندما جئت أحسست أنني واحد من مجتمع الجامعة وبدأت أتكيف. الحياة في الجامعة الأميركية في بيروت حياة جامعية طبيعية، تتسم فيها العلاقات بود الزمالة. علاوة على ذلك، في العلاقات دفء لم يكن موجوداً في الجامعات التي عملت فيها في بريطانيا، ذلك الدفء الذي تشعر به عندما يدعوك الناس إلى بيوتهم في أول أسبوع من قدومك.

في فلسطين لم يكن الأمر كما كان في الجامعة الأميركية في بيروت. ولا أدري هل عومل كل مَن عادوا إلى فلسطين بالطريقة نفسها، أم يعود ذلك إلى طبيعة المنصب الذي أجد نفسي فيه... لا يوجد دفء في العلاقات، بل أشعر أحياناً بأن الودّ مفقود. يخطر لي أنه بعد خمسة وأربعين عاماً من عذاب الاحتلال، أصبح الناس يختزنون من الغضب الكثير، وبما أنهم لا يستطيعون لأسباب شتى أن يوجهوا هذا الغضب حيث يجب أن يوجَّه، فإنهم يخففون من وطأته بالتشاحن فيما بينهم. أحياناً، أشعر بأن ذلك هو الحال حتى في الجامعة.

■ **هل تعطيك رام الله شعوراً بأنها عاصمة مثل بيروت؟ هل رام الله عاصمة طبيعية أم مدينة مركبة؟ ماذا تشعر في هذه المدينة؟**

□ الشعور الطاغي لديّ في رام الله، طوال الوقت تقريباً، هو أننا نعيش في فقاعة لا بد يوماً من أن تنفقئ. وفي أحيان كثيرة أشعر بالاختناق، ربما لأنني جئت حديثاً، ولم أعتد على ما يجب بحق أن يثير الحنق، بينما يبدو الناس من حولي معتادين. رام الله مبنية على تلال. كنت في سكني السابق أخرج مع زوجتي للتمشي ليلاً. عندما تصعد إلى قمة تلّ، تشعر بأن مزاجك جيد وتتنفس عميقاً. لا يدوم هذا الشعور طويلاً. عندما تنظر حولك تواجهك المستعمرات بأنوارها المشعشعة، وتطل على سجن عوفر. تشعر بالإحباط. منزل أخت زوجتي في قرية اسمها سردة. كنت وزوجتي نمشي من رام الله إلى تلك القرية، فنمرّ بمستعمرة بيت إيل الضخمة، التي يصر نتنياهو، بمناسبة وبلا مناسبة، على أنها في التسوية النهائية لا بد من أن تُضم إلى إسرائيل. أول مرة مشينا تلك الطريق صعقت عندما لم تستغرق المسافة من المقاطعة، وهي مركز رئاسة السلطة الفلسطينية، إلى بيت إيل سوى نحو خمس عشرة دقيقة مشياً متراخياً!

ويتفاقم الإحساس بالاختناق عندما يعبر المرء الحواجز الإسرائيلية، وخصوصاً حاجز قلندية، المعبر الذي يتعين عبوره إلى القدس من رام الله على كل مَن حالفه حظ الحصول على تصريح زيارة. الباب الحديدي الدوار

كالقفص يشبه أبواب البقر الدوارة في مزارع إنجلترا، والكل يتدافع والحراس الإسرائيليون ينهرون ويشخطون. لا يزال مثل هذه الأمور يجعل الدم يغلي. وما يحزّ في النفس أن كثيرين من أبناء الطبقة الوسطى، إن لم يكن أغلبهم، لا يمرون بمثل هذه التجارب، فهم يحصلون على تسهيلات تمكّنهم من المرور في النقاط المريحة، ومن استعمال الطرق المخصصة للإسرائيليين. والكل يعرف أن هذه الامتيازات جزء من منظومة السيطرة الإسرائيلية. إنني لا أطلق هنا حكماً أخلاقياً على أحد. فأنا أيضاً صرت بعد فترة أستخدم جواز سفري البريطاني للعبور إلى القدس من حاجز حزمة المخصص لعبور الإسرائيليين والأجانب. أشعر بالذنب أحياناً، لكن يعييك طول الانتظار على الحواجز الأُخرى.

أمّا إن أغمضت عينيك عن هذه الأمور كلها، فستظن أن الحياة في رام الله طبيعية، والحديث هنا عن رام الله وحدها لا عن غيرها. هناك سينما ومسرح ونشاطات ثقافية ومقاه ومطاعم ومتاجر، والناس يتزاورون ويتسامرون، وتبرز مباني الشقق والفيلات في الأرجاء. وهناك أيضاً نقاط مضيئة. فمثلاً، هناك انتشار واسع للموسيقى العربية والموسيقى الكلاسيكية، وفي أماكن غير معهودة. فتجد أطفالاً في المخيمات يعزفون الكمان، وذلك بفضل جهود مؤسسات غير ربحية غير حكومية، كمعهد إدوارد سعيد للموسيقى - وهو بالمناسبة تابع لجامعة بير زيت، ومؤسسة الكمنجاتي.

وككل ما في البلد، فإن الالتباس هنا عصي على التسطيح. فمن جهة، يمكن القول إن الأهم في هذه المرحلة، ولمرحلة طويلة مقبلة، هو صمود الناس. ولا صمود إن لم تصمد الطبقة الوسطى. وهذه لن تصمد إن لم تتوفر لها أنماط عيش كتلك التي اعتادتها الطبقات الوسطى في كل مكان. ومن جهة ثانية قد يقال إن الطبقة الوسطى تتدبر أمرها على الرغم من كل شيء تاركة الناس العاديين لمصيرهم ولمقاومة الاحتلال. وقد أفزعني ذات مرة أن توماس فريدمان مراسل ومعلق "النيويورك تايمز" قال لي بعد زيارة لرام الله: "آمل ألاّ تغضب. أريد أن أسألك سؤالاً مباشراً: هل تظن أن الشعب الفلسطيني قد اشتُري؟"

■ **هل كان لديك فضول لأن تزور مستعمرة؟**

□ لا أعلم إن كان ذلك ممكناً أصلاً. عندما كنت في بريطانيا، نشأ لديّ هذا الفضول عندما وصف لي المؤرخ البريطاني الشهير إريك هوبسباوم (اليهودي المولد والمعادي للصهيونية) زيارته لمستعمرة قرب رام الله "في محاولة للتعرف إلى كيف تفكر هذه الوحوش الكاسرة (wild beasts)." منذ ذلك الحين لم يخطر الأمر في بالي.

■ **بعد ٤ أعوام من وجودك في رام الله ألا تشعر بأنك في وطنك؟**

□ لا، لا أشعر بأنني في وطني، لكن عندما أسافر أحب أن أعود... ويمكن أن يكون هذا الشعور فقط لأن في هذا المكان يوجد بيتي وأغراضي. الحقيقة هي أنني أستطيع أن أغادر من دون أن يتسبب ذلك بجرح غائر، ومن دون أن أشعر بذنب.

■ **أنت ولدت في الطنطورة وسكنت في طولكرم طويلاً. هل ذهبت إلى طولكرم؟ هل يوجد لديك حنين إلى المخيم في طولكرم؟**

□ نعم يوجد لديّ حنين، لكن الغريب في هذا الموضوع أنني لم أذهب إلى طولكرم، لأن وقتي ضيق. قد لا يكون حنيني أصيلاً، فأنا أعيش على بعد ساعة من طولكرم، لكنني لا

أزورها!!

■ **هنا سؤال آخر يُطرح، هل الشخص إذا لم يعش في مكان واحد، وتعددت الأمكنة التي عاش فيها، تتساوى لديه في المشاعر، جميع الأمكنة؟**

□ هذه الفكرة يؤدي فيها التكوين النفسي والفكري للشخص دوراً كبيراً. أنا طوال الوقت كنت أعتبر نفسي مواطناً عالمياً بناء على تأسيسي الثقافي اليساري والشيوعي. ومن ناحية ثانية، تدخل في تكويني عناصر من المثل الأكاديمية الغربية الليبرالية. فقد عملت مدة طويلة أستاذاً جامعياً في بريطانيا. وفي أثناء ذلك تشرّبت قيم أن النهل من ثقافات متنوعة يثري ويمتع ويصقل ويهذب، وأن تلاقح الثقافات إيجابي يعزز في الناس إنسانيتهم. بهذا المعنى، أشعر بأنني أنتمي إلى أكثر من ثقافة واحدة، بل ربما لا أشعر بالانتماء إلى مكان معين وحده، فأينما أذهب أقدر على تدبر أمري وأعتبر نفسي في وطني، وفي الوقت ذاته، كشخص ذي منحى نقدي، ليس في وطني. لا أدري إن كان ذلك ناجماً عن كوني لاجئاً، أم لأنني نشأت على مبادئ الأممية أولاً، ومبادئ الأكاديميا الغربية ثانياً.

■ **في بداية هذه المقابلة قلت إن ذهابك إلى رام الله، ليس تحقيقاً لحق العودة. أنت تستطيع بحكم جواز السفر البريطاني الذي تحمله، ولديك الحق القانوني في هذا، أن تشتري منزلاً وأن تسكن في الطنطورة أو في حيفا أو يافا أو القدس.**

□ لا أدري إذا كان ذلك ممكناً، لأن الإسرائيليين عندما يقرأون اسمك العربي لا يعطونك إقامة لأكثر من ثلاثة أشهر للزيارة الواحدة، وإذا أكثرتَ من زياراتك يقولون لماذا تأتي دائماً؟ وقد يعيدونك من حيث أتيت.

■ **خطر ببالك أن تعود إلى الطنطورة؟ هل هذه القرية ما زالت موجودة على الأرض؟**

□ كلا ليست موجودة.

■ **هل تستطيع أن تشتري عقاراً هناك؟**

□ الحقيقة أن السكن في حيفا خطر ببالي. وإذا حدث ذلك يكون أمراً جميلاً، وإذا لم يحدث فإنه لا يؤثر.

الجامعة والسلطة والمنظمات غير الحكومية

■ **نعود إلى الجامعة. جامعة بير زيت كبيرة ولديها سمعة جيدة كجامعة فلسطينية، ولها تاريخ مجيد علمياً وسياسياً، فهي خرّجت كادرات الانتفاضة الأولى، وكثيراً من الكادرات الفلسطينية وما زالت. أنت الرئيس الرابع للجامعة؟**

□ نعم سبقني إلى ذلك حنا ناصر وغابي برامكي ونبيل قسيس.

■ **هلاّ تحدثنا عن الجامعة: الأبنية؛ الملاعب؛ الحدائق؟**

□ حرم جامعة بير زيت جميل جداً، فهو يقع على تل. وفي النهار عندما يكون الجو صافياً، ترى الساحل. اللافت أن الجامعة

بُنيت كلها بجهود فردية طوعية. تبرع آل ناصر بالأراضي التي شكّلت النواة، وهناك الآن ٣٢ مبنى رئيسياً، ٢٠ منها بتبرع من أفراد كرماء، معظمهم فلسطينيون وبعضهم عرب من غير الفلسطينيين. وقد استطاعت بير زيت استقطاب أموال تبرعات لا للمباني فقط، لكن أيضاً للبنية التحتية من مياه وصرف صحي وحدائق وطرق وشوارع. والواقع أن الشعب الفلسطيني يستطيع بحق أن يفخر بأنه استطاع، على الرغم من قسوة الظروف، وعلى الرغم من تاريخنا المعذب، أن يبني بجهود طوعية جامعة كجامعة بير زيت بجمال بنيان ورفعة أكاديمية.

نعم، خرّجت بير زيت كادرات سياسية كانت ولا تزال في واجهة النضال الفلسطيني ضد الاحتلال وتحتل مواقع مؤثرة لا في السلطة الفلسطينية فقط، بل أيضاً في الاقتصاد والقطاع الخاص والأكاديميا والمجتمع الأهلي والمنظمات غير الحكومية.

في تقديري أن نجاح خريجي بير زيت في أداء أدوار قيادية في كافة مناحي الحياة يعود إلى أن الجامعة تبنّت النموذج المعروف بالتعليم الليبرالي (liberal arts)، إذ مهما يكن اختصاص الخريج من بير زيت، فإنه يتلقى في الجامعة تربية عامة (general education) تجعله مطلاً على الدنيا ويعرف عن الكثير ويتمتع بسعة الأفق وبتفكير نقدي وقدرة على التعلم، وكلها أمور تؤهل للقيادة والفعل والتأثير. للأسف، قبل تسلمي منصبي بزمن، بدأ ذلك يتغير. طغى التعليم التقني من دون ثقافة عامة، فأصبح الخريجون الآن أقرب إلى ما تنتجه جامعات منطقتنا العربية التي تعتمد الحشو والتلقين. ويمكن بمعنى ما القول، فيما يتعلق بالتربية العامة، إنني أحاول أن أعيد الأمور إلى بعض ما كانت عليه فيما مضى.

كذلك أصبح الإرث الوطني مشوهاً وغير عقلاني. كمثال، دعا برنامج الماجستير في الدراسات الدولية القنصل البريطاني لإعطاء محاضرة بشأن العلاقات الفلسطينية ـ البريطانية خلال الأعوام الخمسين الماضية. فنُظّمت تظاهرة في الجامعة وطُرد الرجل بدعوى أن بريطانيا دولة استعمارية وصاحبة وعد بلفور. كيف يكون تكوين طلبة دراسات دولية إن لم تتح لهم فرصة الحوار مع سياسيين ودبلوماسيين دوليين من شتى الدول؟! مثال آخر هو زيارة الرئيس الفرنسي فرنسوا هولاند. كان يريد الاجتماع بأساتذة وطلبة من جامعة بير زيت، فأصدرت الكتل الطلابية بياناً يخوّن كل مَن يجتمع به. أليس من الأفضل أن نُسمِع زعيم دولة كبرى كفرنسا ما نريد؟!

للأسف، المزايدات بين الفصائل هي ما يتحكم بالسلوك. وتلك نقمة ابتُلي بها العمل الفلسطيني منذ نشأته. لكن المزايدات تفاقمت بعد أن فقدت الفصائل دورها الحقيقي وبات الأمر مقتصراً على التنافس الفصائلي الذي، في رأيي المتواضع، يضر ولا ينفع.

■ **أليس من وظيفتك أن تصلح هذا الخلل؟**

□ نعم وأنا أحاول ذلك، لكن الجامعات لا تُدار من شخص واحد، بل من هيئات يتعين إقناعها قبلاً، والتوصل معها إلى تفكير مشترك.

■ **هل يمكن إصلاح الوضع برأيك؟**

□ ممكن، والأمر ليس مستحيلاً، لكنه يصطدم أيضاً بالاتجاهات الدينية في الجامعة التي يعتقد أصحابها أن الثقافة العامة تشجع على الإلحاد، ويرون أن تدريس الأفكار العلمانية والاشتراكية

والليبرالية والفلسفات المختلفة أمر بغيض مشبوه. عندما يحتج بعضهم، أقول لولا الجو التعددي الليبرالي، بالمعنى الحميد للكلمة، لربما وُجهتم بالقمع. والأمر سيان بالنسبة إلى التيارات غير الدينية. مثلاً قبل مدة، كان حزب التحرير الإسلامي يقيم نشاطاً تضمّن محاضرة، فأبدى بعض الطلبة استياءهم وجاءوا كي يطلبوا مني إيقاف النشاط لأن في الكلام الذي كان يقال إهانة للنساء. أنا شخصياً أعتقد أن في كلام حزب التحرير كثيراً من الإهانة للنساء، لكن حرية التعبير في الجو الجامعي تقتضي السماح حتى لأكثر الناس تطرفاً بإبداء آرائهم، وعلى الآخرين مقارعتهم بالحجة. وإذا ما رضخت الجامعة وحرمت حزب التحرير من الكلام، فسيأتي مَن يطالب بمنع "فتح" أو "حماس" أو غيرهما. الوضع معقد كثيراً لأن التعددية الثقافية ليست متأصلة فينا.

■ **هل يؤثر تراجع مكانة الثقافة العامة في المستوى؟**

□ بلا شك، فخريج الجامعة الذي لا يتزود خلال دراسته الجامعية بزاد الثقافة العامة وبمهارات القرن الحادي والعشرين لا يستطيع أداء أدوار قيادية. وكي يؤدي دوراً كهذا فإنه يلزمه الذكاء الاجتماعي، ويجب أن يعرف أيضاً كيف يخاطب وكيف يفاوض وكيف يكتب مذكرة أو خطاباً وكيف يدير الوقت وكيف يحفّز فريقاً.

■ **بير زيت معروفة بالانتخابات الديمقراطية فيها، لكن الانتخابات أصبحت مؤخراً مصدر إزعاج ومشاكل. هل هذا نتيجة تلك المتغيرات كافة؟**

□ لا، على الأقل في الأعوام الثلاثة الماضية منذ أن تسلمت منصبي، جرت الانتخابات بشكل ديمقراطي، وبحيوية وسلمية ومن دون مشاكل، على الرغم من تسجيل تدخّل خارجي أمني.

■ **أليس ذلك غير ديمقراطي؟**

□ نعم، مثلاً، التقيت فرداً من أفراد الأمن في مناسبة اجتماعية، وكان يتحدث عن تفاصيل الانتخابات، فسألته: كيف تعرف ذلك؟ فقال لي: أنا قضيت ذلك اليوم في الجامعة، فسألته: كيف تدخل إلى الجامعة من دون أن تطلب إذناً؟ عندها ارتبك وغادر. وعلى الرغم من ذلك، فإن الانتخابات كانت سليمة وحيوية، والحقيقة أن أجواءها كانت مفرحة.

لكن في غير أوقات الانتخابات تحدث شجارات مؤسفة بين تلك القلّة من الطلاب المنضوية في الفصائل. على سبيل المثال: بينما أنا هنا في بيروت وقع شجار بين طلاب من "فتح" وآخرين من "حماس"، واضطرت الإدارة إلى تعليق الدوام الجامعي. وقبل عدة أشهر تضارب طلاب من "فتح" و"حماس" على خلفية انتخابات داخلية، وأحدهم أُدخل إلى المستشفى. وبعد كل شجار يأتيك قادة الفريقين ليقولوا: ما المشكلة؟ لماذا تريد الإدارة المحاسبة؟ لقد تصالحنا!!

■ **مؤخراً دارت معركة بين طلاب جامعة بير زيت وبين الإدارة بسبب الأقساط والرسوم، هلاّ أطلعتنا على أسبابها؟**

□ إن النموذج الاقتصادي للجامعات الفلسطينية غير مستدام، لأن ٧٠ إلى ٨٠٪ من العائدات هي عبارة عن أقساط، و٧٠ إلى ٨٠٪ من النفقات هي على شكل رواتب وأجور، بينما الأقساط منخفضة جداً. في جامعة بير زيت الأقساط هي ١٥٠٠ دولار في السنة تقريباً، وإمكان زيادتها قليل

جداً، والأجور تتصاعد عاماً بعد عام، بسبب الاتفاقيات الجماعية مع النقابات كتعويض عن الغلاء، وبسبب الزيادات السنوية لرواتب الموظفين وتكلفة ترقيتهم. وعندما تكون الأقساط منخفضة جداً، فإن ذلك يشكّل معونة مالية للأغنياء والفقراء على حد سواء. ما حاولناه هو تصحيح الوضع بزيادة الأقساط، وفي الوقت نفسه زيادة المعونة المالية، كي يدفع مَن يستطيع، أما مَن لا يستطيع، فيتلقى معونة مالية تمكّنه من الاستمرار في الدراسة في الجامعة، إنفاذاً لمبدأ تلتزم به جامعة بير زيت التزاماً صادقاً، وهو ألاّ تحول أسباب مالية دون أن يدرس فيها ويتخرج منها مَن هو مؤهل لذلك أكاديمياً. ومع الأسف، باءت هذه المحاولة بالفشل، إذ نجمت عنها مشكلات وسجالات أدت إلى إغلاق الجامعة قرابة شهر.

■ **أُغلقت عنوة.. من قبل الطلاب؟**

☐ نعم. اتفقت الإدارة ومجلس الطلبة أن من حق الطلاب أن يقوموا بإضراب، وإذا نجح الإضراب تتجاوب الجامعة، لكن الذي حدث أن الدعوة إلى الإضراب لم تتم، فطلاب من شبيبة "فتح" أقفلوا الجامعة بالسلاسل، علماً بأن القوى الطلابية الأُخرى شجبت ذلك في اليوم الأول، لكن فجر اليوم الثاني أصدرت تلك القوى بياناً قالت فيه إنه حرصاً على مطالب الحركة الطلابية فإنها انضمت إلى الاحتجاج.

الذي حدث أنه لم يكن هناك نقاش عقلاني، علماً بأن المسألة هي كيف يمكن أن تتخطى جامعة بير زيت أزمتها المالية، فهناك عجز دائم مقداره بين ٤ و٥ ملايين دينار كل عام.

■ **هناك باب آخر للعجز، فالجامعة تدفع الأجور والراتب على أساس تثبيت سعر صرف الدينار على ٥,٦ أمام الشيكل، وتحرك السعر يزيد عجز الجامعة المالي، كيف تفسرون ذلك؟**

☐ ليس هذا فقط، بل إن الوضع المالي للجامعة يصبح في أزمة، وذلك يحول دون التخطيط المالي السليم. فكيف يمكن أن تخطط إذا كنت لا تعرف كم ستكون فاتورة الرواتب من شهر إلى آخر؟ قلنا نثبت الأقساط على السعر نفسه لتفادي مخاطر تقلبات أسعار العملة، ولم ننجح للأسف. والآن المشكلة هي كيف نستطيع أن نتدبر أمر المرتبات.

■ **ما هو التزام الحكومة الفلسطينية تجاه الجامعات؟**

☐ على الورق، نظام التعليم العالي الجامعي الفلسطيني متقدم ويجب الحفاظ عليه لأن أغلبية الجامعات هي جامعات عامة، بمعنى أنها غير ربحية ومستقلة عن السلطة ويديرها مجلس أمناء مستقل، لكنها مؤهلة للدعم الحكومي، والحكومة لا تتدخل مباشرة في شؤونها. ووفق النظام التعليمي هذا، هناك نوعان من الجامعات: الجامعات الحكومية التي تدار مباشرة من وزارة التعليم العالي وموظفوها تابعون مباشرة للوزارة؛ وجامعات خاصة ربحيّة. الآن الاتجاه السائد في أوساط السلطة يقول بضرورة "إزاحة الجامعات العامة عن كاهل الحكومة" بتحويلها إلى جامعات خاصة ربحية. يقول آخرون إن على الجامعات أن تكون كلها حكومية، وعندها تعرف الحكومة كيف تديرها. أنا من الأشخاص الذين يقاومون الاتجاهين.

■ **المبلغ الذي تخصصه وزارة التعليم العالي في ميزانيتها للجامعات ضئيل جداً، ومع ذلك لا يتم تسديده كلّه. كم هو**

المبلغ المتراكم لجامعة بير زيت لدى الحكومة؟

☐ ٧ أو ٨ ملايين دينار.

■ **هذا المبلغ يستطيع أن يغطي العجز في حال تم تسديده؟**

☐ يمكن هذا المبلغ أن يغطي عجز عام واحد، لكن بالنسبة إلى الأعوام التي تليها ماذا نفعل؟ لذلك يجب أن يتم التسديد بانتظام إذا أرادوا أن يحلوا المشكلة، وهم الآن يضعون خطّة، وهي عبثية، تقوم على أن يتم تأليف وفد من رؤساء الجامعات الفلسطينية يجول على دول الخليج كي تتبنّى كل جامعة فيها جامعة فلسطينية. لا أعلم ما إذا كانت هذه الخطة ستنجح. هم يبحثون عن حلول من هذا القبيل.

■ **أنت إلى أي جامعة تريد الذهاب؟**

☐ نحن في بير زيت لدينا علاقة جيدة جداً مع جامعة قطر، وهناك اتفاقية تعاون بين الجامعتين وما بين الكليات فيهما، وأول محاولة لوضع اتفاقية التعاون موضع التنفيذ جرت في الفترة الأخيرة بين كلية الحقوق في جامعة بير زيت وكلية الحقوق في جامعة قطر، لكن الجانب القطري اعتذر.

■ **أزمة جامعة بير زيت الأخيرة خرجت من أسوار الجامعة لتتحول إلى قضية رأي عام. هل ستتكرر هذه الأزمة مجدداً برأيك؟**

☐ لا أعرف ما إذا كانت ستتكرر بالطريقة نفسها، لكنني أقول إن الأزمة التي حدثت في بير زيت، كان فيها جانب إيجابي هو أنها فتحت نقاشاً بشأن مستقبل التعليم العالي في فلسطين، وطرحت سؤال إلى أين نحن ذاهبون؟ لقد كان النقاش جدياً على الرغم من السلبية التي أحاطت به، وأصبح واضحاً ـ على الأقل بالنسبة إليّ ـ أن مستقبل التعليم العالي الفلسطيني بات يحتاج إلى بحث جدّي، وخصوصاً بشأن كيفية إنقاذه، لا كيفية تطويره. وبرأيي فإن أزمة جامعة بير زيت كشفت هشاشة النظام السياسي الفلسطيني. خلال الأزمة اجتمع ياسر عبد ربّه مع الرئيس محمود عباس (أبو مازن)، وغادر الرئيس بعد الاجتماع، وتحدث في مقابلة مع التلفزيون قائلاً إن ما يحدث في جامعة بير زيت غير مقبول ويجب أن ينتهي فوراً، والصحف جميعها نشرت الموضوع، وفهم الجميع أن تلك رسالة من فخامة الرئيس نفسه، لكن الجامعة لم تُفتح. وبعد ذلك استنكر فخامة الرئيس إغلاق الجامعة علناً وطلب فتحها، ولم يحدث ذلك، كأن الطلبة، وخصوصاً طلبة "فتح"، يعتقدون أن فخامة الرئيس معلق سياسي. وقد سبّب ذلك إحراجاً بالغاً، وبدأت أطراف في السلطة تفكر جدياً في فتح الجامعة بالقوة. بلّغنا وزير الداخلية وكافة الأطراف أن إدارة جامعة بير زيت تعارض ذلك، فما هكذا تحل المشاكل، وفي النهاية مهما يقترف بعض الطلبة من أخطاء، فإن علينا نحن كأساتذتهم أن نظل نرعاهم ونقوم حيالهم مقام الآباء والأمهات.

■ **كنتَ في شبابك أحد قادة المنظمات الفلسطينية، والآن أنت رئيس جامعة وتخوض معارك مع الفصائل. ما هو شعورك؟ ألا يوجد تسوية معهم أو إمكان لأن تحاورهم ليس فقط بصفتك رئيس جامعة، بل كمناضل أيضاً؟**

☐ تكلمنا مع القوى السياسية جميعها، والجميع قال إن الذي تقومون به جيد. تحدثت مع محمود العالول (من "فتح")، ومع خالدة جرار (من الجبهة الشعبية)، وقيس

عبد الكريم (الجبهة الديمقراطية)، وغيرهم، وجميعهم قالوا إن ما تقومون به جيد من حيث المبدأ، لكن يجب أن تجدوا طريقة تتفقون بها مع الطلاب.

■ **هل جربت أن تتفق مع الطلاب؟**

□ الطلاب المنتمون إلى الفصائل يقولون إن هذه ليست مشكلتنا ـ لقد استشرت في المجتمع الفلسطيني ثقافة الاتكالية ـ وهم يرون أن العالم ملزم بنا، وعند أي مطالبة للناس بدفع الضرائب أو الأقساط الجامعية، يكون الجواب العفوي: لماذا ندفع، على الدولة أن تقدم كل شيء وعلى المجتمع الدولي أن يقدم كل شيء.. ألم تجرب مع الأوروبيين أو مع الخليجيين؟ الناس يطالبون بالحلول السحرية الآتية من الخارج، والقوى السياسية تريد دائماً أن يتم الأمر من طريق التسويات.

■ **أوليس مجلس الطلبة شريكاً؟ ألا يوجد ممثل لمجلس الطلبة في إدارة الجامعة؟**

□ هذه من الأشياء الناقصة التي يجب تصحيحها. قبل أن تحدث الأزمة الأخيرة قررنا أن يضم المجلس الأكاديمي، وهو من المجالس المؤثرة، ممثلين عن الطلبة، إذ يوجد ممثلين عن الطلبة في مجالس الدوائر ومجالس الكليات، لكن ليس في المستويات الأعلى في هيئات الجامعة.

■ **لديكم مشكلة عامة مثل كل الجامعات: مشكلة ميزانيات وتمويل. كيف ترى سبل الخروج من هذه المشكلة: كرئيس جامعة وأكاديمي ومثقف... ثم ما هو دور التعليم العام الجامعي في المجتمع؟**

□ الجواب هو في الحوار المجتمعي. يجب أن يكون هناك نوع من التوافق المجتمعي على دور الجامعات. الآن لا يوجد أي نوع من الحوار بشأن هذا الموضوع ولا يوجد توافق مجتمعي. هناك اتجاهان: الأول يعتبر أن الجامعات مصنع للشهادات أو مؤسسات تدريبية تزود الناس بالمهارات كي يجدوا عملاً؛ الثاني يرى أن الجامعة ليست دورة تدريب ولا مصنع شهادات. أنا مع التوجه الثاني، وأرى أن دور الجامعة هو، فضلاً عن تخريج الكادر التقني، حماية العقلانية في المجتمع من طريق الإنتاج الفكري والثقافي والفني والعلمي، ومن دون التغاضي عن متطلبات سوق العمل.

إذا كان دور الجامعة مثلاً فقط التدريب على التكنولوجيا الموجودة حالياً، وليس على القواعد الأساسية أو القواعد النظرية، فإن تقادم الخريج يصبح سريعاً جداً، وبعد عامين أو ثلاثة تتغير التكنولوجيا ولن يستطيع أن يلحق بها، بينما إذا سلّحته بأداة تفكير، فإن في إمكانه أن يواكب التكنولوجيا.

هذه هي العناصر التي أحاول أن أدخلها في النقاش المجتمعي بشأن دور الجامعات في فلسطين. لكن لفلسطين وضعها الخاص، وضمن الوضع الخاص هذا هناك عنصران آخران يجب أن يدخلا في دور الجامعة: الأول هو الاحتلال الإسرائيلي الذي يواصل تنفيذ مخططه الكبير بالاستيلاء على الأرض كافة ـ عبر المفاهيم القديمة التي ترى الفلسطينيين حطابين وسقائين، أي أنهم في خدمة الاقتصاد الإسرائيلي. وكي نتلافى هذا المصير، على المجتمع أن يهتم بالتعليم العالي؛ الثاني إبقاء الخريجين في الوطن ـ فالجامعات الفلسطينية مثل لبنان تعلّم وتصّدر إلى الخارج ـ إن ذلك يفرّغ المجتمع من العناصر الحيوية، بينما علينا نحن أن ندعم الصمود. ومن الأدوار التي يجب أن تضطلع بها الجامعات في فلسطين،

الاهتمام بالعلوم الاجتماعية. فلسطين هي مختبر هائل للعلوم الاجتماعية، لكن الإنتاج العلمي الفلسطيني في هذا الحقل ضئيل ومتواضع، وربما يعود ذلك، في جانب منه، إلى الدور الذي تقوم به المنظمات غير الحكومية "السياساتية" التي تتكاثر في البلد. فهي تعهد إلى أساتذة العلوم الاجتماعية بوضع أوراق "سياساتية" سريعة لا تقوم على البحث الجدي، في مقابل مبالغ مالية مجزية. ومنذ قدومي إلى بير زيت أواصل حث المعنيين على وضع جداول أعمال بحثية موضوعها المجتمع الفلسطيني والتاريخ الفلسطيني والسياسة الفلسطينية. لكنني أعي أن هذه المسائل بحاجة إلى تقاليد يتطلب إرساؤها زمناً.

■ **هل تعتقد أن المناخ في جامعة بير زيت تأثر بالانتقال من الاحتلال المباشر إلى الاحتلال غير المباشر في ظل السلطة الوطنية؟**

□ بتقديري نعم، في ظل الاحتلال المباشر كانت الأمور أوضح كثيراً، وكان هناك إجماع وطني. بعد قدوم السلطة اختلطت الأمور وفُقدت المثالية، ولم تستبدل بقيم الكبرياء الجامعي المهني.

ففي بريطانيا - وفق تجربتي - عندما تتكلم مع الأستاذ الجامعي، تجد أن لديه دائماً طموحاً له علاقة بالبحث والأكاديميا وبتعليم الطلاب وبالنشر إلخ... أمّا في فلسطين فحين تتكلم مع الأساتذة فإن ثلاثة أرباع الحديث يدور حول هموم حياتية ليس لها علاقة بالقضية الوطنية. ولعل موجة الفساد التي ظهرت مع السلطة أثّرت كثيراً في المجتمع الذي فقد المثالية. فعندما يحدث فساد وعلى نطاق واسع يسأل البعض: ما دام الجميع ينهب، لماذا لا أنهب؟ ولماذا أضحّي؟ يجب أن أنتبه لنفسي ولعائلتي ولمصالحي الشخصية. الآن تجري جهود حثيثة لاجتثاث الفساد، لكن محو الآثار الاجتماعية يأخذ وقتاً.

■ **تمتاز الجامعات الإسرائيلية بحيوية هائلة، على الأقل بالنسبة إلى العلوم الاجتماعية. ويشارك أساتذة وشباب من أراضي الـ ٤٨ في نقاشات بشأن المشروع الوطني بعدما وصلت عملية أوسلو إلى طريق مسدود. هل ينعكس هذا على النقاشات في جامعة بير زيت... وهل تفكرون باستقطاب أساتذة وطلاب من فلسطينيي ٤٨؟**

□ هناك توجه لاستقطابهم الآن، لكن عندما أتيت إلى الجامعة لم يكن هناك خطة لاستقطاب طلاب من أراضي ٤٨، وعملت على هذا الموضوع كثيراً، والآن أصبح لدينا ١٨ طالباً من أراضي ٤٨، بينما في عمّان يوجد عشرات الآلاف من هؤلاء الطلاب.

■ **ما هو مجموع عدد الطلاب من أراضي ٤٨ في جامعة بير زيت؟**

□ هناك توجه الآن لاستقطاب طلاب من الـ ٤٨ كما ذكرت. عملنا على ذلك ولا نزال. في الأردن هناك عشرات آلاف الطلبة من ٤٨، أمّا في بيرزيت فإن العدد لا يزال متواضعاً، ربما أقل من ٣٠، مع أن شهادة بير زيت معترف بها في إسرائيل وتلقى التقدير، ولا سيما من الروابط المهنية والجمعيات العلمية.

أمّا بالنسبة إلى الأساتذة من ٤٨، فلدينا حفنة من الأكاديميين المميزين نعتز بهم. قبل سنة ٢٠٠٠، كان عددهم كبيراً نسبياً، وكان بينهم أسماء لامعة كعزمي بشارة وشريف كناعنة. بعد ذلك أصبح التنقل من وإلى الضفة الغربية صعباً جداً، فقلّ العدد.

وربما كان هناك سبب آخر هو أن الجامعات في إسرائيل أصبحت أكثر انفتاحاً على استقطاب أكاديميين فلسطينيين يحملون الجنسية الإسرائيلية، وشروط العمل هناك أفضل.

باختصار، ليس الوضع من هذه الناحية مرضياً، لكننا نحاول. وقد أنشأنا مشروع الماجستير للدراسات الإسرائيلية، ونسعى لتوفير التمويل له، فإن نجحنا، كان هذا البرنامج مجالاً رحباً للتعاون مع أساتذة من الـ ٤٨. وهم الآن يستطيعون المجيء عبر الحواجز، فمع أن إسرائيل تمنع الإسرائيليين من دخول أراضي السلطة الفلسطينية، إلاّ إنها لا تكترث للأمر إن كان مَن يعبر عربياً.

أمّا تأثير الجامعات الإسرائيلية في جامعة بير زيت فمعدوم. الجميع متفق على مقاطعة الجامعات الإسرائيلية التزاماً بالمقاطعة الأكاديمية العالمية لإسرائيل، لكن هناك سجالاً بشأن استقبال الأكاديميين الأجانب في بير زيت إن زاروا أيضاً جامعة إسرائيلية، لأن بعضنا يرى أن من الخطأ أن نعزل أنفسنا عن العالم. كثيرون من الزوار يأتون إلى بير زيت لشعورهم بالذنب إن هم زاروا جامعة إسرائيلية ولم يزوروا جامعة فلسطينية، وبعضهم يتلقى النصح من أساتذة إسرائيليين بضرورة زيارة بير زيت. واللافت أن بعض مَن يأتوننا يتحولون تحولاً هائلاً. فمثلاً، أكاديمي بارز جداً في علوم الكمبيوتر يحمل الجنسية الأميركية زار بير زيت ومكث بضعة أيام، ثم ذهب إلى القدس عن طريق قلندية، فشهد معاناة الفلسطينيين على المعبر. بعد عودته أنشأ لفلسطين صفحة في موقعه في الشبكة الإلكترونية يتحدث فيه عن تجربته في بير زيت، وعن عبوره نقطة التفتيش الإسرائيلية والإهانة التي لحقت بإنسانيته عندما رأى كيف يهان الفلسطينيون ولم يستطع الدفاع عنهم.

مشهد عام لجامعة بير زيت

الذاكرة غير الواضحة والذاكرة الحيّة

■ **ننتقل إلى الحديث عنك، عن تجربتك الشخصية، فالقضايا العامة قد ترتبط بالشخصية. أنت من قرية الطنطورة التي دُمرت في سنة ١٩٤٨ وشهدت مجزرة كبرى.. حدثنا عن علاقتك بالطنطورة، ماذا تتذكر؟ وهل كنت تعلم بحدوث المذبحة؟ ولماذا لم تتكلم عنها؟**

□ كان عمري ٣ أعوام وبضعة أشهر، لديّ صورة في مخيلتي واضحة جداً ونابضة بالحياة عن عملية الطرد، لكني أتصور أنها ليست ذاكرة حقيقية. أتصور أن جزءاً كبيراً منها مستقى من القصص التي سمعتها، من أحاديث الأهل والأقارب.

■ **هي ذاكرة مكتسبة؟**

□ نعم.

■ **أنت، وفق ذاكرتك، كيف عشتها؟**

□ أتذكر كيف جمعونا: النساء والأطفال. يقولون إنه كان معنا رجال كبار في السن، لكني لا أذكر ذلك. وفي ذاكرتي أن جدتي كانت ترتدي ثوب الفلاحين وأنا متعلق بثوبها. وأذكر كيف جمعونا ووضعونا في مصنع زجاج بناه داني روتشيلد قرب القرية. كان أهل القرية يسمونه "المقزازة" نسبة إلى "القزاز" وهي الكلمة العامية لـ "زجاج". أتذكر أنهم جمعونا إلى جانبه أو في ظلّه، لكن الصورة التي لا تزال تصدمني هي بكاء النساء وعويلهن، وخصوصاً عندما عبرت شاحنات في الاتجاه المعاكس محمّلة برجال فلسطينيين. أذكر أن إحداهن قالت إنهم أخذوا الرجال كي يذبحوهم، فصرخت بها امرأة أُخرى وأسكتتها قائلة: "لا تفاولي عليهم" - باللهجة الفلسطينية.

■ **هل سمعت أصوات الرصاص عند إعدام الرجال؟**

□ كلا، وهذا ما كنت أريد أن أقوله. عندما كنت في مانشستر، وقبل قضية المؤرخ الإسرائيلي تيدي كاتس [الذي كتب أطروحة عن المذبحة وتعرّض لدعوى تشهير بسبب كشفه عن مجزرة الطنطورة من خلال دراسة ماجستير في جامعة حيفا في سنة ١٩٩٨] بعامين أو ثلاثة، اتصل بي شخص أميركي - لا أذكر اسمه - وقال لي أنه يكتب عن مذبحة الطنطورة وسألني عمّا أعرف عن الموضوع، فرويت له ما أعرفه عن طردنا من قريتنا، وأنني لم أكن أعلم شيئاً عن مذبحة الطنطورة. ذهبت وسألت أهلي، فاعتبروا حدوث المجزرة أمراً طبيعياً، ولم يكن جوابهم هذا شافياً. أمّا القصص التي سمعت عنها وأنا طفل فكانت عن الأسرى، لأن جدي وعمي الذي كان صغيراً بالسن نسبياً، أُسرا، ثم نُقلا إلى منطقة عتليت. ولذلك فإنني سمعت قصص الأسر كثيراً.

■ **كم بقيا في الأسر؟**

□ عاماً ونصف عام.. على ما أذكر.

■ **هل أُجبرا على القيام بالأشغال الشاقة؟**

□ نعم، لكن بعد أن سُمح للصليب الأحمر بأن يراهما تحسنت الأحوال. يا ليتني دونت كل تلك الأحداث في حينه. الآن جدي وعمي توفيا.

■ **يقال إن الأسرى كانوا يخيّرون بين**

المغادرة، أو البقاء في "إسرائيل"؟

☐ لا أعلم إلى أي مدى هذا الكلام صحيحاً، لأنه عندما تم نقلنا من الفريديس إلى طولكرم لم يكن من خيار أمامنا سوى الترحيل.

■ **نحن نتحدث عن الأسرى وليس السكان؟**

☐ الادعاء الإسرائيلي نفسه بالنسبة إلى السكان، إذ يزعمون أنهم خيّروا الناس، فذهبوا إلى طولكرم.

■ **بعض الأسرى بقي في المعتقلات عاماً ونصف عام، وآخرون ٣ أعوام. الذي لم يقبل بخيار الخروج أبقوه في اللد وكان أسره مضاعفاً، ثم أُفرج عنهم وبقوا في اللد. الذي له أهل انضم إليهم، ومَن كان أهله قد غادروا، تمت إعادته عند "لم الشمل"؟**

☐ إذاً أسرى الطنطورة غادروها كلهم بعد إطلاقهم.

■ **ماذا تذكر عن أهلك، والدك أين كان؟**

☐ والدي كان متوفياً، جدتي وعماتي هن اللواتي قمن بتربيتي.

■ **ووالدتك أين كانت؟**

☐ أمي تزوجت من رجل آخر بعد وفاة والدي، وقد لجأت معه إلى حمص على ما أذكر.

■ **أنت كنت مع جدتك وعمّاتك.**

☐ نعم.

■ **ماذا تذكر من مشهد الخروج؟**

☐ أتذكر الشاحنات التي حُشرنا فيها عندما نُقلنا من الطنطورة إلى الفريديس، ثم الباصات التي جاء بها الصليب الاحمر لنقلنا إلى طولكرم، وأتذكر كيف وصلنا إلى طولكرم وجرى وضعنا في مدرسة.

■ **وقصّة الطابة؟**

☐ آه، نعم، الطابة، لا أعرف إذا كانت هذه قصة حقيقية... أهلي كانوا يتحدثون عنها - إنه مشهد سريالي - قبل أن يضعونا في شاحنات كان هناك جندي يحمل طابة، أنا كنت أبكي وأقول هذه طابتي، فردّها لي.

■ **إلى أين خرجتم قبل أن تنتقلوا إلى طولكرم؟**

☐ خرجنا أولاً إلى الفريديس وبعد أسبوع أو ١٥ يوماً، أخرجونا بإشراف الصليب الأحمر إلى طولكرم.

■ **هل أخرجوكم بالقوة من الفريديس؟**

☐ إنهم يدّعون أن الناس خرجوا بإرادتهم.

■ **وجدتك وعماتك ماذا يقُلن؟**

☐ يقُلن أنهن أُخرجن بالقوة، ويلُمن أهل الفريديس بزعم أنهم اشتكوا إلى الإسرائيليين أنهم لم يعودوا يحتملون وجودنا، لكن آخرين يؤكدون أن الإسرائيليين ضغطوا على أهل الفريديس كي يطلبوا إبعاد اللاجئين.

■ **ماذا تذكر عن الأسبوع الذي قضيتموه في الفريديس؟**

☐ لا أذكر منه شيئاً خاصاً، أذكر فقط الباصات التي نقلتنا من البلدة. أذكر المشي، وقد انتقلنا، أنا وجدتي وثلاث عمّات، من الطنطورة إلى الفريديس بالشاحنات، وبالباصات من الفريديس حتى منطقة قرب طولكرم، قبل الخطوط الأردنية في ذلك الوقت. وكانت توجد قوات عراقية أيضاً في

طولكرم. أنزلونا من الباصات ومشينا، لكن مسافة قصيرة. وبعد ذلك أذكر الغرفة التي سكنّا فيها في المدرسة في طولكرم، وكيف كانت مقسمة "بالبطانيات" ليكون لكل عائلة شيء من الخصوصية.

■ **وجدك وعمّك؟**

□ جدي وعمي كانا في الأسر.

■ **لديك عم ثان؟**

□ نعم كان قد اتخذ خلال المعركة موقعاً على جزيرة صغيرة قبالة البلدة، وكان يحمل سلاحاً أوتوماتيكياً Bren. يقول أنه كان يضطر أن يبول عليه كي يتمكن من تبريده، لأن حرارة سبطانته ترتفع كثيراً عندما يطلق النار.

يقولون إنه عندما سقطت الطنطورة، ترك الجزيرة سباحة قاصداً الفريديس، وقبل أن يصل أخبروه أن الإسرائيليين موجودون فيها وأنهم يعاملون الناس بشكل سيىء. لا أعرف كيف وصل إلى طولكرم. عيّنوه مديراً لمخيم اللاجئين لأنه كان متعلماً. وقد استأجر غرفة وسكنّا معه وكانت تقع على طرف المخيم، وهو في ذلك الوقت كان يعمل ٢٠ ساعة يومياً في إنشاء المخيم.

■ **هل تزوج عمك؟**

□ بعد أعوام تزوج.

■ **هل لا يزال في طولكرم؟**

□ قبل سنة ١٩٦٧ انتقل إلى أريحا تبعاً لعمله مع الأونروا وانتقلت معه عائلته والأقارب، ثم نزحوا إلى الأردن بعد ١٩٦٧، وواصل العمل مع الأونروا، وهو الآن متقاعد ويسكن في عمّان، ولديه ابنة في عمّان وأولاده في فرنسا.

■ **ماذا عن جدك وعمّك الآخر؟**

□ جدي وعمي بعدما عادا من الأسر، اشتغلا بالمشاريع الصغيرة لتوظيف اللاجئين. قبل ذلك عملا - وهذه واحدة من المشاهد الباقية في ذاكرتي - في تكسير الحجارة يدوياً لرصف الطرقات. بعد ذلك، عمل جدي في اقتلاع الحجارة من الجبال بالديناميت. أذكر جيداً أن حياتنا كانت قاسية إذ كان الطعام قليلاً، وكنا نقف بالصف للحصول على الإعاشة، وكان هناك أشخاص كثيرون يبيعون الإعاشة، وأنا أذكر أننا لم نبعها، بل كنا نأكلها، ربما لأنه كان لدينا مال من نقود عمي، ولم نكن نحتاج إلى النقود.

وفي المدارس، على ما أذكر، كانوا يعطوننا حليباً. أصر عمي على أن يدخلني إلى المدرسة الحكومية في طولكرم وليس في مدرسة الأونروا، وكنت أجد أنها مسافة طويلة، لكن عندما ذهبت وأنا كبير لم أجدها طويلة.

■ **أنت عشت طفلاً وحيداً بين كبار السن؟**

□ نعم. لكن وجود الكتب خفف مصاعب الحياة. فإحدى عمّاتي وعمّي الأصغر كانا يستأجران الكتب ويحضرانها إلى البيت. أذكر أن أجرة الكتاب لأسبوع كانت نصف قرش.

■ **ما أنواع الكتب التي كنت تستأجرها؟**

□ كل أنواع الكتب. وقد تم افتتاح مكتبة عامة في طولكرم، وكنا، نحن أولاد المخيم ومَن يسكنون حوله، مرابطين تقريباً فيها.

■ **ألم تعمل عندما كنت في مرحلة التعليم الثانوي؟**

☐ كلا لأن عمّي الصغير كان قد سافر في ذلك الوقت إلى الكويت وتحسنت أحوالنا المادية.

■ **هل انتقلتم من المخيم؟**

☐ نحن كنّا نسكن أصلاً على أطراف المخيم. في الأوقات العادية كان المنزل عبارة عن غرفة واحدة، وعندما تتحسن أحوالنا كنا نستأجر منزلاً مؤلفاً من غرفتين ومطبخ، والطعام كان معقولاً.

■ **هل كنتم تأكلون اللحم؟**

☐ نعم مرة في الأسبوع مثل باقي الناس، وكانوا يطبخون اللحم في اليخاني وباقي الأسبوع نأكل الطعام بزيت.

■ **الآن هل تحب اللحم أو الطعام بالزيت؟**

☐ في الحقيقة تعرفت على اللحم الستيك عندما جئت إلى الجامعة الأميركية في بيروت، لم أكن أعرف قبل ذلك أنه يوجد ستيك. أنا آكل اللحوم لكنني غير مغرم بأكلها كثيراً.

■ **اللاجئون الذين خرجوا من فلسطين إلى دول الجوار كانوا يواجهون أحياناً عدم تقبّل البعض في المجتمع المضيف لهم. هل واجه اللاجئون في داخل فلسطين مشكلات مشابهة؟**

☐ نعم. كنا نُنعت بازدراء بأننا لاجئون.

■ **هل كان هناك تصرفات عدائية؟**

☐ هي مشاعر عدائية أكثر من تصرفات عدائية. وفي الواقع لا أدري لماذا تشوب الوحدة الوطنية، أو على الأقل وحدة الحال، مثل هذه المشاعر. وحتى الآن، هناك مشاعر سلبية في الضفة تجاه أهل غزة، وفي رام الله تجاه "أهل الشمال"، أي أهل نابلس وطولكرم وجنين، فهم يقولون عنهم إنهم "أكلوا البلد وسيطروا على كل شيء."

■ **كنت مجتهداً وذكياً في المدرسة.**

☐ نعم.

■ **أي المواد كنت تفضّل؟**

☐ هذه واحدة من مفارقات حياتي، ففي المدرسة الثانوية كنت أريد أن أدرس الأدب، لكن الظروف دفعتني نحو العلوم والهندسة. فبعد الصف التاسع ـ وهو الصف الثالث إعدادي (المستوى الذي يختار التلميذ فيه الاتجاه العلمي أم الاتجاه الأدبي) ـ كنت أريد الصف الأدبي، لكن الأهل قالوا إنه يجب أن آخذ الصف العلمي، "فالأدب هو هواية لديك وأنت تقرأ، وماذا سيعلمونك في الأدبي أكثر ممّا تقرأ أنت؟" هكذا أخذت الصف العلمي. وفي التوجيهي حصلت على علامات جيدة، وفي تلك السنة قدّم التلاميذ المتفوقون في المدارس الحكومية امتحانات دخول ـ في عمّان ـ إلى الجامعة الأميركية في بيروت، ونلت أعلى العلامات بين المتقدمين وأخذت منحة إلى الجامعة الأميركية.

■ **هناك قصّة عن المنحة، هل تخبرنا بها؟**

☐ عندما قيل لي إنه لدي منحة في الجامعة الأميركية في بيروت، سألني مدير المدرسة: لماذا لا تقدم منحة إلى جامعة القاهرة؟ فسألته لماذا أطلب منحة في القاهرة وأنا لديّ منحة من الجامعة الأميركية في بيروت؟ فقال لي: غداً يأتي سفير أو وزير ويأخذ المنحة وأنت تبقى من دون منحة لا

في القاهرة ولا في بيروت، قدم احتياطاً. أُسقط في يدي، وكان عمري نحو ١٧ عاماً، فاستقليت الباص وذهبت إلى وزارة التعليم في عمّان، فقال لي الحاجب: ماذا تريد؟ قلت له أريد مقابلة الوزير، "لماذا تريد أن تقابل الوزير؟"، فأخبرته أن لدي مشكلة؛ فقال لي: "الآن آخذك إلى رئيس قسم البعثات وهو رجل طيب وتشرح له قضيتك." ذهبت إليه وكان المسؤول هو عيسى الناعوري، وهو أحد الأدباء الفلسطينيين ومترجم من اللغة الإيطالية، كما علمت فيما بعد، وعندما رأيت اسمه تذكرت أني قرأت له. كنت غاضباً كثيراً وارتفع صوتي وقلت له إنهم أخبروني أني لن أحصل على المنحة لأنه يمكن أن يأخذها ابن سفير أو ابن وزير، فقال لي: "اهدأ"، وأخرج الملف، وقال لي: "سآخذك إلى شخص تخبره بما أخبرتني"، وتناول ملفاً؛ أخذني إلى وكيل وزارة التعليم وكان اسمه دوقان الهنداوي - الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء - فعرضت عليه القضية وقال لي: "لا تهتم ستحصل على المنحة... اذهب إلى طولكرم وضع يديك في مياه باردة، وستذهب إلى الجامعة الأميركية في بيروت." ويبدو أن الناعوري والهنداوي لم يعمّرا طويلاً في وزارة التعليم لأنه تم نقلهما فيما بعد. وبعد ذلك عندما كنت في الجامعة الأميركية في بيروت تخرج حفيد لعيسى الناعوري فانتبهت إلى الاسم وأخبرته القصة، فحدّث أهله بها وفي حفلة التخرج بحثوا عني، وقالوا لي - على ذمتهم - إن دوقان الهنداوي والناعوري نُقلا لأنهما لم يكونا يتجاوبان مع وساطات أبناء السفراء والوزراء.

■ **كيف حضرت إلى بيروت: براً أو بالطائرة؟**

□ براً.

■ **وقبل ذلك، كيف كنت قد وصلت إلى عمّان؟**

□ لا أذكر، لكن أذكر أنه في عمّان وضعونا في سيارات.

■ **كم طالباً كنتم؟**

□ كنّا ثلاث سيارات كل سيارة فيها ٤ أو ٥ أشخاص، نحو ١٥ شخصاً. أبلغونا أن "السيارة ستنزلكم على أبواب الجامعة الأميركية، وستجدون شخصاً في انتظاركم." أذكر من تلك الرحلة أن البحر ظهر أمامنا في منطقة عاليه، وكانت أول مرة في حياتي أشاهد فيها البحر. فجأة قلت للسائق توقف... توقف. فارتبك السائق لأنه لم يكن يعلم سبب طلبي، لكنه توقف وسألني: "ماذا يحدث؟" فقلت له أريد أن أنظر إلى البحر، فقال لي: "ستقضي أعواماً إلى جانبه."

■ **هل كان هناك أحد في انتظاركم في بيروت؟**

□ لا لم يكن هناك أحد، وقد مر شخص بجانبنا، وسأل: "هل الإخوة من الأردن؟" قلنا: نعم، فقال: "هل قالوا لكم إنه يوجد مَن ينتظركم؟" قلنا "نعم"، فقال لنا: "لن ينتظركم أحد، هكذا فعلوا بي العام الماضي"، فذهبنا إلى السكن الجامعي وكان القيّم عليه سودانياً، فاستقبلنا ووضعنا في الغرف.

دخلنا إلى المصعد ونزلنا في الطبقة الثالثة، فقال لي صديقي، وهو الآخر من مدرستي في طولكرم: "هل أخذوا وزننا؟" أنا كنت قد رأيت المصعد في أحد الأفلام، فقلت

له: "لا هذا مصعد." لم نكن نعرف شيئاً، الأمر الذي أحدث صدمة ثقافية لدينا، لكن الذي خفف من هذا أنني كنت أقرأ كثيراً، وعلى الرغم من ذلك كان كل شيء غريباً.

■ **هل بدأت بالدروس فوراً، أم خضعت لدورة باللغة الإنجليزية؟**

□ باشرت الدروس فوراً لأن علامتي في امتحان الدخول كانت عالية.

التجربة النضالية بين بيروت والأردن

■ **في أي سنة كان ذلك، وكيف دخلت إلى عالم السياسة في بيروت؟**

□ هذا كان في سنة ١٩٦٢. ومن الأشياء التي سهّلت حياتي وجعلتني أتكيف في المجتمع مباشرة أنني اهتممت بالسياسة منذ وصولي. أولاً مع حركة القوميين العرب، ولم أكن عضواً، لكنهم اعتبروني نصيراً. وكنت أذهب إلى النادي الثقافي العربي ـ وهذا كله كان بالصدفة ـ لأن سكني كان في شقة فوق النادي الثقافي العربي في المبنى نفسه، وكنت قد حضرت محاضرة في النادي الثقافي العربي، ومن حينه دخلت في أجوائهم، وبعد عامين أو عام ونصف عام في الجامعة الأميركية، برزت خلافات اليسار داخل حركة القوميين العرب.

■ **عندما حدث الانشقاق؟**

□ كلا، قبل ذلك. كان الأمر عبارة عن نقاشات.

■ **الانشقاق حدث بعد سنة ١٩٦٧ عندما انشق نايف حواتمة؟**

□ نعم. في الفترة التي أتحدث عنها، أي في سنة ١٩٦٣ على ما أظن، كان التيار اليساري قد بدأ في الظهور. وبما أن عمّي الصغير كان شيوعياً ويجلب كتباً عن الشيوعية، فقد تسنى لي أن أطّلع منذ صغري على بعض الأدبيات الماركسية. وربما بتأثير من ذلك، استهوتني فكرة اليسار واليسار الجديد، ودخلت في أجوائهم، ونشطت. وفي سنة ١٩٦٦، أو في أواخر سنة ١٩٦٥، اتصل بي أشخاص من المنظمة الشعبية لتحرير فلسطين.

■ **مَن هم قادة المنظمة الشعبية لتحرير فلسطين؟**

□ كان من قادتها عبد اللطيف أبو جبارة، وكان منشقاً عن الحزب الشيوعي الأردني ـ الفلسطيني، وضباط في جيش التحرير الفلسطيني، وعلى رأسهم عبد العزيز الوجيه وسمير الخطيب. كانت ميول المنظمة ماوية، لكن ليس بوضوح، وكانت في بداية تكوينها، فالتحقت بها وشكلنا نواة في الجامعة الأميركية. وشهدت تلك الفترة في أوساط الطلبة الفلسطينيين في الجامعة الأميركية في بيروت انتشاراً لعدد من التنظيمات التي كانت كلها في بداياتها.

وعندما اندلعت حرب ١٩٦٧، جمعنا أنفسنا نحن الطلاب الفلسطينيين وكنّا نريد أن نقاتل في حرب التحرير، وأتصور أن الذين أشرفوا على هذه العملية كانوا من حركة القوميين العرب. وضعونا في باصات وأخذونا إلى دمشق حيث تدربنا ٣

أو ٤ ساعات ووضعونا في خنادق على جبل قاسيون لكن لم نفعل شيئاً. ثم وصلنا خبر سقوط الضفة الغربية، فسألونا إذا كنّا نريد أن نذهب للقتال في فلسطين، وكنا في الأصل نريد ذلك، فوضعونا في باصات وذهبنا إلى فلسطين من طريق الأردن. ونحن في الطريق شعرنا بأن شيئاً ما يحدث، وعندما وصلنا إلى عمّان اكتشفنا أن الضفة الغربية سقطت كلها، والجنود على الطرقات لا يعرفون ماذا يفعلون أو إلى أين يذهبون، ولم أكن أعرف أن أهلي قد نزحوا. قضينا في عمّان ٣ أو ٤ أيام ثم عدنا إلى بيروت.

في بيروت كنت ـ وأنا طالب ـ قد ترجمت بعض النصوص لمركز الأبحاث الفلسطيني، كما كنت في تلك الفترة أترجم كتباً يسارية لدار الطليعة وأوقّع باسم خليل سليم. وباقتراح من يوسف العظمة عملت في مركز الأبحاث، نحو عام، في الترجمة والتحرير، في نشرة "اليوميات الفلسطينية".

في سنة ١٩٦٨ توجهت إلى عمّان للعمل مع المنظمة الشعبية لتحرير فلسطين، ولأنها كانت في طور التأسيس وليس فيها كوادر قيادية، وجدت نفسي فجأة قيادياً في المنظمة، وفي السنة نفسها حدث انشقاق الجبهة الديمقراطية عن الجبهة الشعبية، وكان هناك حديث في البداية أنهما [المنظمة الشعبية والجبهة الديمقراطية] منظمتان متشابهتان جداً والأشخاص يعرفون بعضهم جيداً، فما هو المبرر لأن تكونا منظمتين منفصلتين؟

هكذا تكونت الجبهة الديمقراطية جرّاء الانشقاق عن الجبهة الشعبية، واندماج المنظمة الشعبية لتحرير فلسطين، ووجدت نفسي عضواً في المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وكان عمري في ذلك الوقت ٢٣ عاماً.

■ **عمّ كنت مسؤولاً في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين؟**

□ كنت مسؤولاً عن الإعلام، وكنت أحمل مسدساً، لكني لم استخدمه قط.

■ **قلت أنك في دمشق تدربت ثلاث ساعات؟**

□ تدربت قليلاً على تفكيك الكلاشنكوف وإعادة تركيبه. هناك قصة حدثت معي أمام فواز طرابلسي، فعندما أتى إلى عمّان سألته متباهياً: هل تعرف كيف تفك وتركب الكلاشنكوف؟ وقمت بتفكيك الكلاشنكوف، لكني لم أعرف كيف أعيد تركيبه.

■ **متى كان ذلك؟**

□ أعتقد في أواخر سنة ١٩٦٨ أو أوائل سنة ١٩٦٩. وكان مثلي شخصان أو ثلاثة أشخاص لم يعرفوا كيف يعيدون تركيبه إلى أن أتى صالح رأفت وركّب السلاح، ويمكن أن فواز في "صورة الفتى بالأحمر" كتب عن القصة هذه وبالغ فيها قليلاً، وقال إن أحداً لم يكن يعرف كيف يركب السلاح سوى القائد العسكري الأعلى.

■ **ماذا كان عملك في عمّان؟**

□ عملت في عمّان في الإعلام. كنت رئيس تحرير نشرة الجبهة، وكنت أتواصل مع الوفود الأجنبية كوني أتحدث اللغة الإنجليزية وبذلك كنت منشغلاً بالوفود الأجنبية في معظم الوقت.

من الأشياء التي تخجلني أنني احتججت احتجاجاً خفيفاً في ذلك الوقت على تضخيم البيانات العسكرية، لكنني في النهاية سكت. هذه القصة تؤلمني حتى اليوم؛ كان هناك إصرار على أن ذلك من ضرورات التنافس بين الفصائل، لكنه كان في أحيان كثيرة

كذباً خالصاً.

■ **أين سكنت في عمّان؟**

□ سكنت في منازل مستأجرة، مع ياسر عبد ربه في جبل عمّان وكانت الفترة الأطول، ومع أبو ليلى، وأحياناً كنا نسكن نحن الثلاثة معاً.

■ **الآن أبو ليلى في الضفة الغربية هل تراه؟**

□ قليل جداً.

■ **ألستم أصدقاء؟**

□ نحن أصدقاء، لكنه مشغول جداً وأنا أيضاً، لذلك لا أراه كثيراً.

■ **وبعد ذلك كيف تركت الجبهة الديمقراطية؟**

□ كنت أعترض كثيراً، كاعتراضي على البيانات العسكرية، لكني اعترضت على أشياء أُخرى بقوة، الأمر الذي جعل الجو في المكتب السياسي سلبياً تجاهي. وأحد الأشياء التي اعترضت عليها بقوة هي عملية التفريغ [التوظيف]، وقلت ليس من المعقول أن تصبح حركة جماهيرية إذا كان كافة العاملين موظفين، وكان رأي نايف أنه يجب أن يصبح الناس جميعهم ثوريين محترفين. لكن الخلاف كان على قصة الإلحاد والدين، فقد كنت معترضاً على المبالغة في هذه القصة واستعداء الناس، مع أنه عندما تركت وذهبت إلى بريطانيا قال لي أحدهم إنه عندما سألوا نايف عن الإلحاد قال لهم هذا كان خليل الهندي وشخص آخر وقد غادر إلى بريطانيا. حمّلني مسؤولية الإلحاد مع أني كنت أعترض على ذلك. أنا مارست دوري كعضو في المكتب السياسي وفي تحمّل المسؤولية في تلك الفترة، لكنني لم أكن مرتاحاً قطّ لشعار "كل السلطة للمقاومة"، وعن محاولة خلق انتفاضة في الأردن، وعن السوفياتات الأردنية، وقد عبّرت عن ذلك خلال المؤتمر التأسيسي للجبهة الديمقراطية في سنة ١٩٦٩ في إربد. في هذا المؤتمر طرح هذه الشعارات نايف وأبو ليلى وإلى حد ما ياسر عبد ربه وصالح رأفت، (وهؤلاء كانوا) يريدون دفع الأمور نحو صدام حاسم مع النظام، وكان رأيي في حينه ـ وكان لا بد من الاستناد إلى لينين في كل شيء ـ أن الشروط اللينينية لم تكن متوافرة للانتفاضة، وقلت إن الموقف العقلاني ليس تأجيل الصدام مع النظام فقط، بل التعايش معه لتوجيه الجهود نحو التناقض الرئيسي أيضاً. كانت تلك مداخلتي. ولم يؤيدني أحد غير بلال الحسن. أمّا الباقون فهاجموني واتهمني البعض بالخيانة، بل هناك من دعا إلى إعدامي فوراً. قلت لهم إن كنتم مصرين على الصدام، سأصمد أنا ولا أدري مَن سيهرب.

■ **وبقيت في المكتب السياسي؟**

□ كلا لأنني رفضت أن أترشح، وقلت لهم بعد الصدام سأغادر، لأنكم تقودوننا إلى كارثة.

المهم أني تابعت عملي في الإعلام في جبل الحسين إلى أن سقط الجبل، وعندها ذهبت مع شخصين إلى أحد الفنادق في وسط عمّان، وأرسلت خبراً إلى مخيم الوحدات الذي كان ما زال صامداً. طلب منّا مَن كانوا هناك أن نبقى في الفندق إلى أن يرسلون لنا من يقودنا إلى المخيم، فانتظرنا يومين لكن لم يحضر أحد، ثم قُطعت الاتصالات مع مخيم الوحدات، فخطر ببالي أن أذهب إلى منزلي وكان يقع في جبل عمّان، وخصوصاً أن أصحاب الفندق تضايقوا من وجودنا وخافوا أن يكتشف النظام وجود فدائيين في الفندق.

لم أعرف إلى أين أذهب، فخطر ببالي أن أتسلل إلى منزلي، فقطعت ثلاثة أرباع مسافة الطريق إلى المنزل، وفجأة وجدت نفسي بين دبابتين فاعتقلني الجنود وتم تفتيشي، ووجدوا معي ورقة تعرّف بهويتي.

■ **هل كنت تحمل مسدساً؟**

□ كلا لأنه عندما سقط جبل الحسين تخليت عن مسدسي ونزلت إلى الفندق. أخذني الجنود ولم أتعرض للضرب، لكن كان يتم دفعي، وبعد ذلك وضعوني على الحائط وقالوا أنهم سيعدمونني وأطلقوا الرصاص حولي. كنت أتصرف ببرودة شديدة كأنني لست أنا... شيء عجيب، إذ بدا كأن الأمر لا يعنيني، وكأن الموت أصبح محتوماً، وبعد قليل حضر أحد الضباط، وفي ذلك الوقت كانوا يحاورون قادة المقاومة، وقال لي سنأخذك الآن إلى قصر زهران، لأنهم يريدون أن يتكلموا معك، وفي قصر زهران نؤمن لك طريقاً كي تذهب. لم أسألهم مَن هم الذين يريدون أن يتكلموا معي، لم أسألهم شيئاً. وضعوني في المدرعة وأخذوني إلى قصر زهران، وأجلسوني تحت شجرة حيث انتظرت.

كنت أعمل مهندساً في إرسال الإذاعة الأردنية. وبينما أنا على هذه الحال، رآني أحد ضباط معسكر الجيش الذي كان يحرس إرسال الإذاعة، فسألني: "ماذا تفعل هنا؟" سارعت إلى القول أنني أنتظر كي يأخذوني إلى العمل، فقال: "أنا ذاهب إلى الإرسال. آخذك معي." فأخذني إلى هناك في عربة مصفحة وبقيت أسبوعاً إلى أن هدأت الأمور. ذهبت مشياً إلى عمّان، وهناك كنت أعرف سكرتيرة محمد داود الذي كان رئيس وزراء الحكم العسكري آنذاك. ولم يكن مسموحاً لأحد أن يغادر الأردن إلا بإذن، فجلبت لي السكرتيرة إذناً، وذهبت إلى المطار بطريقة عادية.

■ **إلى بيروت؟**

□ نعم جئت إلى بيروت.

■ **هل عملت في مركز الأبحاث بعد عودتك من الأردن؟**

□ نعم وأصدرنا كتاباً عن أحداث أيلول / سبتمبر ١٩٧٠.

■ **مع مَن؟**

□ عملياً أنا كتبت الكتاب كله، لكن كي يكون ممثلاً للمقاومة ككل ولجميع الأطراف، وضعوا المشرف على الكتاب نبيل شعث، وكان معي محرران، هما فؤاد بوارشي وشحادة موسى. في مقدمة الكتاب كتب نبيل شعث على ما أذكر أن الفضل الأكبر في هذا الكتاب يعود إلى خليل هندي. طبعاً عمل على الكتاب عدة أشخاص، بعضهم أجرى مقابلات، وآخرون قاموا بأعمال خلفية، لكن الكتابة الفعلية قمت بها أنا. وهكذا بقيت حتى سنة ١٩٧١، ولم أعمل مهندساً سوى الفترة القصيرة في الأردن وانقطعت عن الهندسة، لكن على الرغم من ذلك قررت أن أذهب إلى بريطانيا لأدرس مرة أُخرى وكي أُكمل دراستي في الماجستير في الهندسة، فكتبت لجامعة مانشستر أنني أريد منحة، فقالوا لي احضر لتثبت نفسك ثم نعطيك منحة، وفي ذلك الوقت كنت أنجزت ترجمات لدار الطليعة، وقد أعطاني بشير الداعوق، صاحب الدار، نقوداً وقال لي عندما يكون لديك وقت تترجم لنا، وما زلت أذكر بتأثر كبير أنه قال لي: "تستطيع أن تعتمد عليّ، وفي حال احتجت إلى نقود، تكلم معي."

ذهبت إلى بريطانيا، وبعد بضعة أشهر حصلت على منحة، وسددت النقود التي كنت قد أخذتها من دار الطليعة من خلال ترجمة الكتب لها، كما ترجمت لدار ابن خلدون.

وبعد الماجستير، أنجزت الدكتوراه بمنحة، ثم دراسات ما بعد الدكتوراه، ثم بدأت التدريس الجامعي. وكان أن رُفض في سنة ١٩٧٤ طلبي تجديد جواز سفري الأردني، فبقيت مدة طويلة من دون جواز سفر.

■ **يعني أنت عملياً أوقفت العمل السياسي بعد أيلول / سبتمبر ١٩٧٠ بالمعنى الحقيقي؟**

□ عملياً نعم، لكن عندما ذهبت للدراسة في مانشستر انخرطت في الحركة الطلابية، ولا سيما في مناخ مناقشات البرنامج المرحلي لمنظمة التحرير في سنة ١٩٧٣.

■ **هل بقيت صديقاً للجبهة الديمقراطية؟**

□ لم يكن لدي أي صلة تنظيمية بها، ولم أكن أعتبر نفسي منها، لكني كنت أقدم لها ولغيرها من المنظمات بعض الخدمات.

■ **أنت كنت مع البرنامج المرحلي؟**

□ نعم. لكن فيما بعد خففت نشاطي السياسي، وبقيت كذلك إلى مفاوضات مرحلة مدريد. وفضلاً عن المفاوضات في واشنطن، فإنه كان هناك مفاوضات متعددة. تحدث مسؤولون فلسطينيون معي من تونس وقالوا نريدك أن تحضر لتشارك في المفاوضات المتعددة، فاشتركت في الوفد الفلسطيني الاقتصادي الذي كان برئاسة يوسف صايغ. وفي الوقت نفسه، كنت عضواً في الوفد الفلسطيني إلى اللجنة التوجيهية للمفاوضات المتعددة الذي كان برئاسة فيصل الحسيني. وقبل اتفاق أوسلو، ربما بشهر أو اثنين، استُدعيت إلى تونس، فذهبت، وهناك بلّغوني عن قناة تفاوض موازية، وقالوا نريدك أن تذهب إلى ستوكهولم. لم يقولوا أوسلو. لا أعلم لماذا!

■ **ألم تناقشهم؟**

□ قلت أريد ملخصاً عن الأمر، فقدمه لي أبو العلاء [أحمد قريع]. شعرت بأنه لم يكن متحمساً كثيراً لإشراكي، وأن أبو عمار هو الذي كان يريد ذلك. فكرت ملياً، قلت إذا كنتم قد توصلتم إلى ما توصلتم إليه، فماذا سأفعل أنا؟ سألت إن كان في الاتفاق المزمع تحكيم. قلت من دون تحكيم، سيقوم الإسرائيليون بما يريدون ويقولون هذا تفسيرنا للاتفاق، فماذا سنفعل؟ لم أذهب. لم أتكلم على هذا الموضوع قط، إلى أن أفشى ممدوح نوفل الأمر في كتابه "طبخة أوسلو".

■ **وبعد ذلك، ألم تستمر في العمل مع المنظمة؟**

□ نعم. أُنشىء المجلس الاقتصادي الفلسطيني (PECDAR)، وكان من شروط الدول المانحة ألاّ يكون محافظو المجلس من منظمة التحرير الفلسطينية مباشرة. عُينت من الرئيس أبو عمار محافظاً، إلى جانب يوسف صايغ وأنطوان زحلان وإبراهيم الدقاق ونبيل قسيس وغيرهم. حاولنا أن نقوم بعمل جيد، لكن أبو عمار كان يعتبرنا عقبة في طريقه. ظل يناور إلى أن أفرغ عملنا من محتواه، وأقنع المجتمع الدولي بالتعاون معه مباشرة.

■ **عدت مجدداً إلى بيروت. فهل عملت في السياسة؟**

□ لا منذ أن عدت إلى بيروت في نهاية سنة ٢٠٠٢، وحتى قبل ذلك، لم أعمل في السياسة. في لندن، وبين أواخر سنة ١٩٩٨ حتى سنة ٢٠٠٢ أنشأنا جمعية للجالية الفلسطينية وانتخبوني رئيساً لها، ونظمنا أنشطة ثقافية

وسياسية وندوات، لكني لم أنشط في العمل السياسي مباشرة، فبعد اتفاق أوسلو وتجربة المجلس الاقتصادي توقفت عن العمل السياسي.

■ **ماذا فعلت في بيروت بين سنتَي ٢٠٠٢ و٢٠١٠؟**

□ لم أفعل شيئاً.

■ **كان عملك أكاديمياً فقط؟**

□ نعم.

■ **هل تعتبر أنك تعمل في السياسة وأنت رئيس جامعة بير زيت؟**

□ في بير زيت كل العمل له محتوى سياسي.

أزمة العمل الوطني الفلسطيني ورؤى الخروج منها

■ **كيف تتصور أفق المرحلة الجديدة كفلسطيني ناضل وساهم على طريقته في النضال الوطني؟**

□ أنا في الحقيقة لا أعرف كيف تتطور الأمور، لكني أؤمن بأن هناك شيئاً يجب أن يتغير... لكن كيف ومن سيقوم بهذا الدور وبهذه المهمة الحقيقة لا أعرف، وليس لدي تصور. أتصور أنه في مرحلة من المراحل ستنشأ قوى جديدة وستبتدع أساليب للمقاومة ولمقارعة الاحتلال. وربما ستكون مقارعة الاحتلال جدية، عندما تنتهي الازدواجية التي خلفتها معادلة السلطة في ظل الاحتلال. مَن سيقوم بهذا الدور؟ لا أعرف، لكني متأكد من أن القوى الموجودة الآن يصعب أن تقوم بهذا الدور إلاّ إذا حصلت عملية داخلية ما، ولا أستبعد أن يخرج من حركة "فتح" تيار يعيد صوغ دور الحركة، إلاّ إني حتى الآن لا أرى شيئاً.

■ **لا يوجد كادر للقيام بمهمة التغيير؟**

□ لا، لكن هناك شباب عمرهم ٤٠ أو ٤٥ عاماً ليس لديهم مناصب في منظمة التحرير ولا في السلطة وهم في "فتح". هؤلاء يحاولون، لكن مع ثقل الجيل الذي قبلهم، ليس من السهل عليهم أن يكونوا البديل.

■ **أنت شاركت في المفاوضات لكن لم تذهب إلى أوسلو، وكنت قد تبنيت برنامج النقاط العشر ومشروع الدولة. برأيك هل الحل المرحلي، الذي هو حل الدولتين، مازال هو المشروع السياسي أم يجب البحث عن مشروع آخر؟**

□ لا شك لديّ في أن مشروع الدولتين لم يعد ممكناً، التاريخ يذهب الآن في اتجاه آخر.

■ **أنت تقول إن حل الدولتين غير ممكن، فما هو الإطار الجديد الذي يجب أن نفكر فيه؟**

□ إن النقاش، برأيي، بشأن دولة واحدة أو دولتين لم يعد له معنى، التاريخ مكّار، وهو يدفع في اتجاه الدولة الواحدة بخلاف إرادة الطرفين. الإسرائيليون لا يرغبون في ذلك، ولا الفلسطينيون. ومن ناحية أُخرى، إذا قلنا إن حل الدولتين لم يعد ممكناً، فماذا يجب أن نفعل؟ أرى أن الطريق المفتوح أمامنا فقط هو نحو ابتداع وسائل لمقاومة الاحتلال وتثبيت الناس في الأرض وعدم

السماح للإسرائيليين بأن ينفذوا مشروعهم. الإسرائيليون لا يزالون يمسكون بكامب ديفيد المصري، وما زالوا ينفذونه من طرف واحد وبلا أي تردد، ويحاولون أن يفرضوه لأنه يسمح لهم بأن يبقوا مسيطرين على فلسطين: بمعنى أن يعيش الفلسطينيون في معازل، ويتم إيجاد تعبير سياسي لهم يمكن أن يكون عبر علاقة مع الأردن، ليس شرطاً أن ينضموا إلى الأردن، لكن يمكن أن تكون غرفة نواب ثانية ملحقة أو أي شيء من هذا القبيل، يمكن أن يطلق عليه اسم دولة، غير أن الإسرائيليين يبقون مسيطرين على الأرض وعلى المياه وعلى كل شيء مثلما هي الحال الآن، وأعتقد أن هذا ما يرمون إليه. المواجهة ممكنه عندما تصل السلطة إلى مأزق لا يمكن الخروج منه. ما يجب أن نقوم به هو إيجاد طريقة لمقارعة الاحتلال كي لا نسمح لمخططه هذا بأن يمر، وبالتالي أن يستمر النضال الفلسطيني حتى لو تم فرض حل كالذي وصفته. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

النكبة

نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود

١٩٤٧ – ١٩٤٩

(ثلاثة أجزاء)

تأليف: **عارف العارف**

إعداد وتقديم: **وليد الخالدي**

١٥٥٨ صفحة ٦٠ دولاراً